الرمال المتحركة

تاليف : ن٠ن٠أ٠براى

عرض : محمود محمود محمد

ن٠ن٠ أ ٠ براي الضابط الانجليزي السابق بالجيش البريطاني في الهند كاتب سلس الاسلوب حلو العبارة ، له كتاب في القضية العربية ، نشره تحت عنوان (الرمال المتحركة) في عام ١٩٣٤ م وكتب مقدمته الوزير البريطاني السير أوستن تشامبرلين ٠

ويستخدم براي الاسلوب القصصي في سرد الوقائع التاريخية فيستثير بذلك شوق القاريء ويدفعه الى مطالعة الكتاب من الغلاف الى الغلاف ٠ وتلمس عطفه على قضية العرب في كل فصول الكتاب وحماسته لتحريرها من نير كل نفوذ أجنبي وأن كان يدعو الى صداقة الانجليز مع العرب ٠

ويقول في مستهل كتابه ان العرب كانوا ـ ومايزالون ـ أصدقاء للبريطانيين منذ عدة قرون ، مصالحهم تتفق مع مصالح بريطانيا ، ومستقبلهم يرتبط بمستقبلها ، والعرب والانجليز على السواء ـ كما يزعم ـ مندعاة الحرية ، يعتقدون في وجود اله أعظم ، يستنكرون الالحاد ، ويؤمنون بالتقدم البشري ٠ ومن ثم كان التعاون بين الشعبين من عوامل استقرار السلام والرخاء في أرجاء العالم كافة ـ وليس هذا الكتاب ـ كما يقول كاتبه ـ الا دعوة الى تعزيز التفاهم بين البلدين لتحقيق هذا الهدف المشترك ٠

ويقدم المؤلف شكره في مقدمته لسعادة الشيخ حافظ وهبة ، وللسيد محمود زاده لما قدما له من عون في تاليف الكتاب من وجهة النظر العربية ، وفي تقصي حياة المغفور له الملك عبد العزيز ٠

الرمـــال
المتحـركه

وفي الكلمة الافتتاحية للكتاب يقول المؤلف انه كان يقوم برحلة في اقليم التبت عند سـفوح جبال الهمالايا بآسـيا ، وانه كان يصطحب بعض الاهـالي من سكان تلك المنطقة ، وقد استشف من حديثهم أنهم يذكرون بالتمجيد انتصـار اليابان على روسيا في منشوريا واستيلاءهم عليها ، ومعنى ذلك عندهم بداية انتهاء دور الغرب ، وبشرى انتصار آسيا على أوروبا ، أو الشرق على الغرب بصـورة عامـة ٠

وينظر الكاتب الى خريطة العالم فيستشعر روح القلق في كل مكان وطأته أقـدام المستعمرين من أهل الغرب ، ويرن في أذنيه صدى نداء الحرية ينبعث من مختـلف الاقطار الشرقية تلبية لانتصار اليابان واستجابة لتحرير الشرق من الغرب ٠

في الهند ، في تركيا ، وايران ، وفي مصر ، تشتعل الحركات القومية ويعلـو نداء الحرية ، فهل كانت هذه الحركات مستقلا بعضهـا عن بعض ، أم أن بينهـا جميعا حافزا مشتركا ؟ هذا هو السؤال الذي أخذ يتردد في ذهن الكاتب ، يستعرض الماضي ويذكر تأثير الحضارة الشرقية في الحضارة الغربية أولا ، وكيف انعكسـت الآية فيما بعد وخضع الشرق للغرب سياسة وحضارة ، ولما اقتبس أهل الشـرق علم الغرب الجديد ، وأخذوا عنهم النظم الديمقراطية الحـديثة ، وأدركـوا أن المستعمر الغربي يستنزف ثرواتهم ، وأن الدول الاوروبية تتنافس في الحصـول على هذه الثروات وفي فتح أسواق التجارة في الشرق ، وما تبـع ذلك من ضـرورة حماية المصالح الاقتصادية بالقوة العسكرية ٠٠ لما حدث ذلك تنبه أهل الشـرق الى ماضيهم المجيد ، وهبوا رجلا واحدا مطالبين بالحرية والاستقلال وطرد المستعمر الغاشم من فوق أراضيهم ٠

وأراد المؤلف أن يدرس هذا التطور التاريخي بعيدا عن مؤثرات الاستعمـار ودعايته محاولا أن يسبر غور الفكر الشرقي ، ففكر أولا في زيارة الصين ، ولكنه عاد فعدل عن هذا الرأي لانه لايعرف اللغة الصينية ، ثم طرأ له أن يزور ايران ، بيـد أنه صرف النظر عنها مرة أخرى نظرا للتنازع القائم بين البريطـانيين والروس على النفوذ هناك ، وأخيرا قرر أن يذهب الى الشام ، فهو يستطيع أن يتفاهم باللغة الفرنسية ، كما يجد فرصة لتعلم اللغة العربية التي لابد أن يفيد منها كل موظف بريطاني يعمل في الهند ، ومن الشام ــ كذلك ــ يطل السائح على بلاد العرب ، وما لها من أهمية دينية قصوى ٠

ويشرع الكاتب في دراسـة الموقف في الجزيرة العربية ، ويلخصـه كما يلي :

كان العرب حتى اشتعال نار الحرب العالمية الاولى في عام ١٩١٤ يهدفون الى

التحرر من نير الحكم التركي ، لان الاتراك كانوا حكاما من أسوأ طراز ، أفقروا البلاد ، وبددوا ثروتها ، وأساءوا الى الناس ولم ينصفوا أحدا ٠

ولطالما تحركت النفوس في ثورة عارمة الا أن انعدام التضامن بين العرب بسبب الخلافات والمنافسات التي ماانفكت توهن عرى التماسك بينهم كان يحول دون تحقيق الآمال ، مما أتاح للحكم العثماني أن يبقى جاثما على صدر البلاد ، وكان السلطان عبد الحميد يحكم تركيا بيد من حديد ، فلم يستطع أحد أن يتنفس نسيم الحرية ــ اللهم الا أن كان ذلك في الخفاء ٠

وعلى الرغم من ظهور شباب متفتح جديد في تركيا ، ينادي بتعزيز كلمة الحرية ، فقد استمر الحكام العثمانيون في صلفهم وما عرف عنهممن استبداد ٠ وآمن العرب أنه لاسبيل الى نيل حريتهم الا بالقوة ، وتأهبت النفوس لاعلان الثورة في كل مكان ، ولبى زعماء العرب جميعا نداء الحرية ماعدا ابن رشيد حاكم حائل والامام يحيى في اليمن ٠

ولما كانت كل حركة ثورية بحاجة الى زعيم قوي يقود زمامها ويوجهها فقد أتاح الله للعرب ابن سعود بطل العروبة وابن بجدتها ، وغيرت بريطانيا سياستها التقليدية وآزرت ابن سعود في حركته ٠

وفي كتاب براي (الرمال المتحركة) الذي نحن بصدد الاقتباس منه فصل خاص عن ابن سعود نورد فيما يلي موجزا له :

يستعرض الكاتب في مطلع الفصل تاريخ المملكة منذ قيام الدولة السعودية الاولى حتى ظهور المغفور له الملك عبد العزيز وقد اشتهر باسم (ابن سعود) في الشرق والغرب ٠

وقد ولد هذا الرجل العظيم في الرياض حوالي عام ١٢٩٣ هـ أثناء فترة الاضطراب التي سادت البلاد بعد وفاة الامام فيصل بن تركي ونشوب الخلاف بين ولديه عبد الله وسعود ، مما اضطر معه والده المرحوم عبد الرحمن بن فيصل الى مغادرة الرياض وعبد العزيز لما يزل طفلا في الحادية عشرة من عمره ، واستقر عبد الرحمن بن فيصل وأسرته في الكويت وهو لايكاد يملك شيئا من أسباب الرزق ، فكان لهذه الظروف المؤلمة التي نشأ فيها عبد العزيز أثرها العميق في نفسه وهو مرهف الحس ، فلا عجب اذا كان همه الاول هو التفكير في استعادة الملك الضائع وتحرير الوطن من كل سلطان أجنبي ليمضي قدما في طريق النهضة والقوة والعزة ، وكأن العناية الالهية قد أعدته لاسترداد مجد آبائه ٠

وكانت الكويت منذ عام ١٨٩٥ م تحت امرة الشيخ مبارك الصباح ، ونشب الخلاف بينه وبين ابن رشيد من أول ولاية الحكم ، فانتهز ابن سعود فرصة الخصومة بين الرجلين ــ وكان آنئذ في الخامسة عشرة من عمره ــ وحالف الصباح وسار على رأس جيش معه صوب الرياض ، ومني جيش الصباح بالهزيمة فغادر الرياض عائدا الى الكويت ٠

بيد أن هذه النكسة لم تثبط همة ابن سعود ، ففي عام ١٩٠١ م خـــرج من الكويت مع أربعين رجلا من قبيلته وتوغل في الصحراء حيث انضم اليه عدد من البدو الذين رحبوا بهذه الفرصة أملا في الغنائم ـ وهكذا تقدم ابن سعود وهدفه الاول القضاء على القبائل البدوية التي تدين بالولاء لابن رشيد •

وسرعان ماانضم الى ابن سعود ألف رجل من المشاة وأربعمائة من الفرســان ثقة منهم في قيادته الرشيدة ، وبهذه القوة تقدم نحو جنوب نجد ، وقد وقع اختياره على البدء بهذه المنطقة لانه كا نعلى علمبثقة أهلها فيه ، ولانها كانت على مبعـدة من حائل عاصمة الرشيد •

واستولى الرعب على ابن رشيد من هذا التحرك ، فاستعان بالاتراك وسار نحو الكويت ، وأمسى ابن سعود في مركز حرج ، اذ أنه لم يعد يقاتل ندا لند بل يجابـه امبرطورية بأسرها ، وقد ناصبه الاتراك العداء ، فأوعز اليه أبوه وامير الكويت أن يتخلى عن مشروعه ويعود الى الكويت ، وفي هذا الجو المشحون بالقلق انصرف عنـه البدو ، وبات وحده مع فرقة صغيرة تتألف من أربعين رجلا من أهله ، ولكنه صمد للموقف بشجاعة نادرة ، وبهذه الشجاعة أحرز نجاحا قل أن يعرف التـاريخ لــــه مثيـــلا •

وانضم اليه عشرون آخرون فأصبحت قوته في مجموعها تتألف من ستين رجلا ، وبهذه القوة تقدم نحو الرياض ، وترك أكثر رجاله هنا وهناك بعيدا عن أســوار المدينة ، وبستة منهم فقط اختارهم لبسالتهم الفذة سار نحو أسوار الريـــاض ، واستطاع مع رجاله أن يتسلقها ويقتحم المدينة •

وفي ظلام الليل اتجه وصحبه نحو بيت مجاور لبيت عجـلان حاكم الرياض ، وقرعوا الباب ، فأجابتهم سيدة من الداخل ، ورد عليها ابن سعود قائلا :

(نحن من طرف الامير عجلان ، أرسلنا لاستدعاء زوجك)

وردت عليه قائلة :

(اعزب عنا انك تضمر شرا ، والا ماقرعت الباب في مثل هذه الســاعة من الليـــل)

قال : (كلا ، أيتها السيدة الكريمة ، واني أحذرك بأن زوجك ان لم يمثل أمام الامير عجلان فورا ، فموته محقق في الصباح)

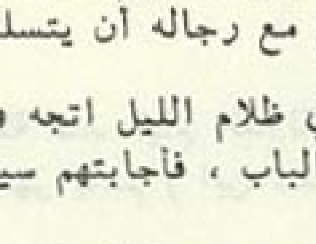

ولما استمع الزوج الى هذا النذير خرج يستطلع الامر وكان ابن سعود يعرفه ويعرف نساءه حق المعرفة ، وما ان ظهر الرجل حتى ألقى ابن سعود القبض عليه وأمره بالتزام الصمت ان أراد الحفاظ على حياته ودفعه الى الامام واقتحم المنزل وما أن شهدته النساء حتى صحن (هذا عبد العزيز) ولكنه حبسهن جميعا في غرفة واحدة وأمرهن بالاحتفاظ بالصمت المطبق والا لقين حتفهن ·

ثم تسلق سور بيت عجلان المجاور للحصن وهنا ألفى رجلين يغطان في نومهما ، فلفهما في فراشهما وحبسهما في احدى الغرف ، ثم أرسل أحد رجاله ليأتي له ببقية أتباعه الذين خلفهم خارج المدينة ، وجاءوا اليه وأهل المدينة نيام ·

وقام ومعه عشرة رجال بتفتيش بيت عجلان غرفة غرفة آملا أن يعثر عليه · وفي احدى الغرف لمح شبح شخصين نائمين فظنهما عجلان وزوجته ولما تفرس وجهيهما عرف أنهما زوجة عجلان وأخت لها ، وعرفته الزوجة عند يقظتها ، وسألته عما يريد فقال : (أريد عجلان ، ولست أريد أحدا سواه) ونصحته المرأة بقولها (لاتغامر بحياتك يابني ، ولذ بالفرار والظلام لايزال يستر المدينة والا قتلوك) فرد عليها قائلا :

(انني لم آت الى هنا لكي أستمع الى نصحك وارشادك ، وانما أريد أن أعرف متى يحضر عجلان من القصر الكبير)

قالت : (بعد شروق الشمس بساعة)

قال : (هذا كل ماأريد معرفته ، وان لزمت أنت وأختك الصمت فلن يصيبكما أذى ، أما ان أثرتما ضجيجا فالموت لكما محقق) ·

ثم جمع النساء جميعا وحبسهن · وتم ذلك كله قبل منتصف الليل والمدينة نائمة ولبث ورفاقه بعدئذ يترقبون بزوغ الفجر ، وما أن ارتفعت الشمس في الافق حتى فتحت أبواب القصر وخرج العبيد يقودون الجياد ، وبعدئذ طلع عجلان ليتفقد الحرس ، فانقض عليه ابن سعود ورجاله وحاول عجلان أن يختفي في القصر ، ولكنهم أطلقوا عليه النار واعتقلوه ، وأطلق رجال عجلان النار على المهاجمين من نوافذ القصر ، وكادوا أن يقضوا عليهم ، بيد أن أحد رجال ابن سعود تمكن في هذه اللحظة من اطلاق النار على عجلان وأرداه قتيلا ، وعندئذ استسلم رجال القصر ، وما أن انتصف النهار حتى نودي بابن سعود حاكما على الرياض ·

ولما ترامت هذه الانباء الى ابن رشيد قال :

(ياله من غر أبله وما أشبهه بالطائر الذي وقع في الفخ !)

ولكن ابن سعود كان أشد ذكاء من أن يبقى حبيسا في الرياض ·

ذلك أنه بعدما أمن الدفاع عن المدينة خلفها في رعاية أحد أفراد أسرته ، وخرج الى الصحراء مع مجموعة من رجاله .

وقد أدى نجاحه الى زيادة عدد المنضمين اليه ، وتمكن من توسيع رقعة الارض الخاضعة له ، فاستولى بعد الرياض على الخرج ، ولما استولى على جنوبي نجد كله اتجه شمالا ، وأقصى نفوذ آل الرشيد عن الاراضي التي كانت تتبعهم جنوبي حائل . وفي عام ١٩٠٥ م قتل الرشيد نفسه في معركة قرب القصيم ، وأخذ أفراد أسرته يتنازعون السلطة من بعده .

وأدرك ابن سعود أنه لو استطاع أن يتخلص من الاقوياء أولا سهل عليه بعد ذلك هزيمة الضعفاء ، فاتجه نحو الاتراك وأوقع بهم الهزيمة . وعلى الرغم من انتصاره أحسن معاملة الاسرى ويسر لهم العودة الى بغداد والمدينة على ظهور الجمال .

ثم سدد سهامه بعد ذلك صوب أبناء عمومته ، وهزمهم ، وعفا عنهم وسرحهم باحسان .

ولما سمع الشريف حسين بهذا النجاح تقهقر في طريق الحجاز .

وقد كان ابن سعود في أخلاقه ومعاملاته نموذجا فريدا في حرب الصحراء ، يتسامح مع خصومه ولا يفتك بهم كما كان يفعل الاسلاف السابقون ، ثقة منه في نفسه وفي مستقبله ، وبهذ، الروح الجديدة اكتسب ولاء العرب له ، وعمل على توحيدهم في دولة واحدة من أجل مصلحتهم وكرامتهم .

وفي عام ١٩١٣ م بعد هزيمة تركيا في حرب البلقان سادت الفوضى اقليم الحسا الخاضع للاتراك آنئذ ، فانتهز ابن سعود الفرصة وغزا هذا الاقليم كما غزا القطيف ، وضمها الى حكمه ، وسمح لأفراد الحاميات التي استولى عليها بالعودة بحرا الى تركيا ، ومعهم أسلحتهم وذخيرتهم .

وفي عام ١٩٢١ استولى على حائل عاصمة آل رشيد ، وانهى بذلك حكمهم . وأتى بأفراد هذه الاسرة الى الرياض وأحسن استقبالهم ووفادتهم .

وفي عام ١٩٢٥ أتم فتح الحجاز ، وانتهى الامر بفرار الملك حسين ، وأحسن معاملة أهل الحجاز ، وغمرهم بالعطف وسياسة اللين .

وكان ابن سعود خلال سنوات القتال يحيا حياة الجندي ، يقيم في خيمة ويتنقل من مكان الى مكان وفقا للظروف ، ولا ينام الا خطفا وهو جالس ويده على مقبض سيفه مستعد ـ عند أي تهديد ـ لأن ينهض ويضرب · وكان يجيد ركوب الخيل والرماية والضرب بالسيف ، ولكنه لم يكن على الرغم من ذلك خشنا أو متسلطا ، بل على العكس من ذلك كان رجلا بسيطا ، متحكما في نفسه ، لايتكلف ولا يتصنع ·

ولم يكن ينظر الى انتصاراته الا خطوات في سبيل تحقيق هدفه البعيد ـ توحيد العرب والنهوض بهم واسترداد كرامتهم ، ويعد النصر من عند الله ، حكيما معتدلا في كل ما يعمل ، وقورا يوحى الى كل من يلقاه بالثقة والتصديق ·

ولم يكن في حروبه مسرفا ، بل كان ينفق من موارده بحرص ، أما في أوقات السلم فقد كان جوادا كريما يعتقد أن المال وسيلة لاغاية ، لايتردد في الانفاق ما دام ذلك في سبيل مصلحة الشعب العربي وكثيرا ما كان يتمثل بهذا المعنى : (كما نزرع نحصد ، فاذا نحن زرعنا الخير في أيام الرخاء ، حصدنا جني الثمار أيام الحروب والمحن) ·

وبهذه الفلسفة البسيطة لم تكن للصدقة أو لفعل الخير عنده حدود ، وبهذه الآراء الواضحة كان يتعامل مع شعبه ومع دول العالم المختلفة ·

وليس بعجيب اذن أن تعلو هامة عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود على هامات تابعيه ومعاصريه ، فهو أوسع منهم عقلا ، وأعمق حكمة ، وأبعد نظرا في تقدير الظروف ·

لم يستطع الملك حسين وأبناؤه أن يظفروا بثقة الشعب العربي ، وعلى نقيض ذلك كان ابن سعود بملامحه الجادة ونظره الثاقب حاكما حازما وسياسيا نابها في آن واحد ، غير أن بريطانيا لم تدرك هذه الحقيقة في ذلك الحين فتلكأت في التقرب اليه واكتساب صداقته خلال الحرب العالمية الثانية ·

وانخدعت بريطانيا بالعداوة القائمة بين الشريف حسين وتركيا ووضعت ثقتها فيه وأضفت عليه صفة الزعامة للعرب ·

ولعل أخطاء السياسة البريطانية ازاء العرب أن يكون مردها الى توزيع المسؤولية السياسية في هذه الناحية بين وزارة الهند ووزارة الخارجية ، مما جعل شئون الحجاز من اختصاص الخارجية وشئون نجد ـ منطقة ابن سعود ـ من اختصاص وزارة الهند فلم يكن هناك تنسيق في السياسة العربية بوجه عام ، ولم يستطع الانجليز أن يقدروا الحركة العربية قدرها الصحيح ، أو أن يدركوا الوحدة الطبيعية في البلاد العربية على الرغم مما قد يبدو فيها من انقسام قبلي ·

واحتل الشريف حسين المكانة التي كان يجب أن يحتلها ابن سعود لو أن السياسة البريطانية كانت أبعد نظرا ، غير أن هذه السياسة البريطانية الخاطئة لم تحد من عزيمة ابن سعود على أن يعيد بناء الجزيرة العربية على أساس جديد ·

وكان من جراء ذلك أن ابن سعود أخذ يعمل على اضعاف تعضيد النفــوذ الاجنبي للشريف حسين ، وكان على وعي تام بما كان للعرب في ماضيهم من منعــة وعزة تهز بهما أركان أوروبا ، وبما أصابهم من تفكك في الوحدة والهدف بسـبب الاحتلال التركي لهذه البلاد لعدة قرون بحيث أمسى كل زعيم لايسعى الا الى مصلحته الخاصة دون النظر الى رفاهية الشعب كله .

وكان ابن سعود يعتقد أن توحيد العرب لغرض واحد ضرورة لامحيض عنها لسيرهم في طريق التقدم واستتباب الامن والحكم النظامي والاخذ بأسباب الحضارة التي هم جديرون بها . وبعد هذا كله ـ وفوق هذا كله ـ كان يؤمن بأن القيادة الرشيدة المخلصة شرط لقيام الوحدة العربية وتحقيق مايصبو اليه الشعب من تحقيق الحرية والحضارة .

وقد كان ابن سعود واقعيا كما كان وطنيا ـ درس التاريخ دراسة مفصــلة وعرف مواطن القوة ومواطن الضعف في امته ، وأخذ منذ ما استرد عرش أبيه يتطلع الى توحيد العرب في كيان سياسي واحد يستطيع أن يلعب مرة أخرى دوره في الشؤون العالمية ، وفي رفاهية الشعب . وكان ينظر الى استيلاء الملك حسين على عرش الحجاز افتئاتا على حقه وعقبة في سـبيل تحرير البلاد . وعلى الرغم من أن الملك حسـين كان يلقى تأييدا من الانجليز الا أن هذا التأييد كان في تقدير ابن سعود أمــرا بالضرورة موقوتا لابد أن يزول ، كماأن من أسباب ضعف الملك حسين أن جيشه كان يضم كثيرا من المرتزقة الذين يعجز الملك حسين عن دفع مرتباتهم نظرا لسوء ادارة حكمــه .

وبناء على ذلك كان ابن سعود يهدف أولا الى القضاء على قوة الملك حســين وثانيا الى اقامة كثير من المشروعات العمرانية . كما عمل على تعزيز شعبه بالقــوة المعنوية والمادية بحيث يستطيع أن يضطلع بتحقيق آماله . ومنأجل ذلك أنشأ مايسمى بحركة (الاخوان) لكي يبعث في الناس حماسة دينية تعلو بهم عن مستوى التناحـر والتنافس وتكسبهم القوة على تحمل المشاق والمخاطر ، والرغبة في انجاز مشروعاته الضخمة ، وقد نجحت هذه الحركة في القضاء على ما كان يدور في نفوس زعمــاء القبائل من غيرة وخلاف ، وكأنهم يقفون صفا واحدا في حرب صليبية جديدة . ولكي يحقق ابن سعود كل هذه الآمال العريضة أرهق نفسه بالعمل المتواصل ، يبشــر بعقيدته الجديدة صباح مساء ويعمل على تطهير الدين الحنيف مما علق به من ترهات وخرافات . كان دائب العمل يوحي نشاطه المثمربايقاظ الهمم ، فاستطاع أن يتغلب على ابن رشيد وعلى مملكة الحجاز وتمكن في النهاية من توحيد البلاد كلهــا تحت زعامته ، وبات في أعين الناس ممثلهم الديني الاعلى ، وقائدهم في معركة التحرير .

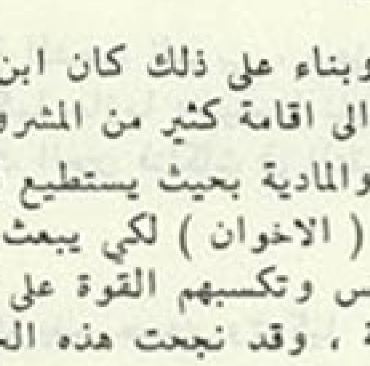

ولم يكن ابن سعود ثملا بنجاحه بل ثابر على تعزيز قوته وتوطيد مركزه بما وهبه الله من الحكمة والقدرة على القيادة ٠

ولذلك فهو اليوم (عام ١٩٣٤) خير من يمثل العرب جميعا ، وليس من شك في أن المستقبل له ، وسوف يحكم له التاريخ بأنه أحد أفراد قلائل هم بناة العصر الحديث ٠

وكان ببصيرته النافذة قادرا على اختيار الرجال الذين يعاونونه في تحقيق مآربه ، ويضحون بحياتهم في سبيل القضية الوطنية ، يحفزهم الايمان بزعامة ابن سعود ولا يطمعون في مجرد الجزاء المادي ٠

وقد اختار ابن سعود ابن جلوي حاكما على الاحساء ، وكان هذا الاقليم لعهد الاتراك مضطربا فوضويا لا يتوافر فيه الأمن٠وكان ابن جلوي هذا صارما حازما في معاملاته ، ومن الامثلة التي تروى عنه أن أحد الرجال جاءه ذات يوم ليخبره بأنه عثر على كيس من البن ملقى في الطريق المؤدية الى الرياض ، فسأله وكيف عرفت أنه بن ؟ قال الرجل (ركلته بقدمي) فأمر ابن جلوي بقطع اصبع قدمه الاكبر ، وبعد ما نفذ ما أمر به قال للرجل (لا تمس بعد اليوم بقدمك أي شيء تلقاه في الطريق) وليس من شك في أن فقدان الاصبع لرجل واحد ثمن زهيد بالنسبة الى السلام الذي ساد البلاد بعد ذلك ، وقد كان النهب والسلب والسرقة من الامور المألوفة في عهد الاتراك والملك حسين وبخاصة في الطريق بين جدة ومكة المكرمة ، وكثيرا ما كان الحجاج يغتصبون ، ولعل ذلك هو ما حدا بالاتراك الى ان يبنوا كثيرا من القلاع في هذه الطريق ، كما كانوا يدفعون لزعماء القبائل في هذه المنطقة اعانات مالية يغرونهم بها بالامتناع عن الاعتداء على ملك الاخرين ٠

ولم يفتر القتال بين ابن سعود وشريف مكه ابان الحرب العالمية الاولى وما بعدها بشأن الاستيلاء على قرى صحراوية صغيرة ، ومن العجيب أن بريطانيا كانت في جميع المواقف تؤيد الشريف حسين وتستخف بابن سعود ٠ وكان من جراء ذلك أن تقلص النفوذ البريطاني في الجزيرة العربية بعدما تركها الشريف حسين ٠ ولولا ما تميز به ابن سعود من حصافة الرأي لكانت العواقب بالنسبة لبريطانيا أوخم مما حدث ٠

وقد كان ابن سعود صريحا في سياسته مع بريطانيا ، وأرسل ابنه فيصل الى لندن في عام ١٩١٩ ليفهم المسئولين وجهة نظره ، وصحب فيصل أحمد بن ثنيان وهو سياسي محنك تدرب في مدرسة القسطنطينية السياسية ٠

ولم يحسن اللورد كيرزون في زارة الخارجية البريطانية استقبال فيصل ، فغادر بريطانيا مع صاحبه غاضبين ، واتجها الى باريس وانتدبت انجلترا لمرافقتهما براي مؤلف هذا الكتاب الذي نستعرضه ليحل محل مستر فلبي في فترة غيابه ٠

ويزعم براي أنه استطاع أن يهدىء من ثائرة أحمد بن ثنيان ، وأن يحصل منه على وعد بايقاف القتال لمدة ثلاث سنوات٠

وكان فيصل بن حسين ملك العراق السابق يقيم آنذاك في باريس وهو لما يزل في صباه ، وحاول براي أن يجمع بين الفيصلين ليصفو الجو بين السعودية والعراق بهذا اللقاء ، غير أن فيصل بن حسين أخذ يستخف بحركة الاخوان ، وغضب لذلك أحمد بن ثنيان ، ولم تتم المقابلة التي كان يدبر لها براي ، وبقي الموقف متوترا كما كان بين البلدين ، ولكن بريطانيا أخذت من ذلك الحين تعدل من سياستها مع السعودية ، فلقد أدركت أخيرا أن التنافس بين القبائل لايمس الاهداف الرئيسية الكبرى للعرب ، والروابط المتينة التي تؤلف بينهم : وهي اللغة ، والدين ، والرغبة في التحرر ، تلك الرغبة التي لم تستطع كل العوامل السياسية أن تحد منها .

ومن الاخطاء التي ارتكبها الحلفاء ازاء العرب ابرام المعاهدة المعروفة باسم سايكس بيكو Sykes - Picot التي قسمت بمقتضاها تركيا والبلاد العربية الى ثلاث مناطق للنفوذ ، احداها لروسيا والاخرى لفرنسا والثالثة لبريطانيا . وكانت انجلترا لجهلها بمشاعر العرب الحقيقية تظن أن العرب لا يهدفون الا الى التخلص من النفوذ التركي ، ولايهمهم بعد ذلك أن يستبدلوا بالادراة التركية ادارة أجنبية أخرى . لم تدرك بريطانيا الرغبة الشديدة في التحرر التي تتأجج في صدور العرب ، ولعلها بدأت تحس بها احساسا ضئيلا عندما شرع شريف مكة يتحرك نحو الثورة . واذن فلقد كانت هذه المعاهدة التي سبق ذكرها عقبة في سبيل التفاهم بين بريطانيا والعرب ، ومن المؤسف أن الآثار السيئة لهذه المعاهدة لا تزال عالقة بالنفوس . وقد اضطرت بريطانيا أخيرا الى أن تعدل كرها عن سياستها القديمة .

وفي الختام أحب (١) أن أسجل هنا أنني أتوقع للجزيرة العربية أن تتمخض عن نهضة وطنية كبرى ، فهي جزء من الشرق ، وما يحدث فيها لايمكن الا أن يكون صدى لما يحدث في كل بلد شرقي بغير استثناء ــ وهو السعي نحو التحرر من نفوذ الغرب الباغي .

ومن رماد الماضي سوف يولد عالم جديد ، وسوف يعلو الهمس الذي طرق سمعي في عام ١٩١١ م في اقليم التيبت على سفوح الهملايا فيصبح صياحا عاليا تردده الجماهير ــ هو صياح الحرية وانتصار الشرق على الغرب في النهاية .

محمود محمود محمد

---

(١) الحديث هنا على لسان براي مؤلف الكتاب